لغز مدينة المايا المقدسة

عجائب الدنيا السبع الجديدة

مدينة قديمة تطل من ركام الماضي لتبهر العالم بجمالها وسحرها الأخاذ وتثير الكثير من التساؤلات حول الحكمة التي أودعها القدماء بين جدرانها، أهرام عجيبة ترتسم صور الآلهة على جدرانها مرتين سنويا وملاعب كرة عمرها عشرات القرون ومراصد فلكية وعشرات المباني الغامضة الأخرى. وإضافة إلى جمال مبانيها، ازدانت المدنية أيضا بغموض كهوفها المليئة بالإسرار العتيقة وانفردت كذلك بآبارها المدورة السحرية التي تقول الأسطورة القديمة إن كهنة اله المطر كانوا يقفون عند حافتها ليضحوا بالفتيات العذراوات ثم يلقون بأجسادهن إلى مياه البئر أملا في أن يجود الإله عليهم بالمطر لتزدهر زراعتهم وتدور عجلة الحياة.

منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد شيد شعب المايا حضارة عظيمة في جنوب المكسيك وشمال أمريكا الوسطى تميزت عن بقية حضارات الميسوامريكا (الحضارات التي نشأت في أمريكا الوسطى والجنوبية قبل غزو الرجل الأبيض) في أنها الوحيدة التي طورت نظاما متكاملا للكتابة كما كان لها باع طويل وانجازات عظيمة في مجال العمران والفن والفلك والحساب إذ إن المايا عرفوا الصفر ووضعوا له علامة خاصة منذ القرن الأول الميلادي مما مكنهم من إجراء عمليات حسابية مليونية وجعل تقويمهم السنوي من أدق التقاويم التي عرفها العالم. وحسب تقويم المايا

فأن حضارتهم تأسست مع بداية دورة الرابعة للعالم والتي بدئت في ١١ أغسطس عام ٣١١٤ قبل الميلاد وستنتهي في ٢١ كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٢ (للمزيد من التفاصيل راجع مقالة القيامة أو نهاية العالم في عام ٢٠١٢).

في القرن التاسع للميلاد بدئت المناطق الحضرية للمايا بالانحسار والتراجع وهجر السكان العديد من المدن الكبيرة والمزدهرة بالتدريج في ظاهرة أثارت استغراب ودهشة العلماء الذين لا يعرفون حتى الآن الأسباب التي أدت إلى هذا الاضمحلال البطيء ففي حين عزاه البعض إلى الحروب والمشاكل الداخلية أرجعه آخرون إلى الأمراض والأوبئة فيما يرى فريق ثالث أن الجفاف والقحط الذي استمر لقرابة قرنين كان هو السبب الرئيسي في تراجع حضارة المايا وانحسارها، إلا أن ذلك لا يعني على الإطلاق انقراض المايا كشعب، فعندما قدم الغازي الاسباني في مطلع القرن السادس عشر كانت المنطقة لاتزال مأهولة بشعب المايا وكان هناك الكثير من المايا الذين باستطاعتهم قراءة المخطوطات القديمة التي ضاع معظمها مع الأسف بسبب إحراقها من قبل القساوسة المبشرين باعتبارها كتب الشيطان، وهناك اليوم الكثير من الناس في المكسيك وأمريكا الوسطى يعتبرون أنفسهم أحفاد المايا.

تشيشن ايتزا هي إحدى مدن المايا المقدسة والتي تصور لنا عظمة حضارتهم وازدهارها في حين كانت أجزاء كبيرة من العالم القديم لازالت ترزح تحت الظلام والجهل، ويعتقد العلماء إن المدينة تأسست في القرن

السادس الميلادي واكتسبت أهميتها الدينية والاقتصادية والسياسية بالتدريج خلال القرون التالية.

تشيشن ايتزا(Chichen Itza) (تعني "عند حافة أو فم بئر ايتزا"، وايتزا هم قبيلة أو مجموعة عرقية سكنوا منطقة شمال شبه جزيرة يوكتان وكان لهم نفوذ سياسي واقتصادي قوي استمر لقرون، ويعتقد بعض الباحثين إن التسمية بحد ذاتها مشتقة من كلمة" سحر "ولذلك فأن الترجمة الاسبانية للاسم تعني "بئر الساحرات" والبئر المقصودة هنا هي نوع من العيون أو الواحات الصغيرة التي تعتمد على المياه الجوفية والتي تسمى بلغة المايا "سينتو" والتي تنفرد بهما منطقة شبه جزيرة يوكتان وبعض جزر الكاريبي، وقد تميزت منطقة تشيشن ايتزا بوجود بئرين من هذا النوع تنضحان بالماء طيلة أيام السنة ولأن المنطقة جافة وأنهارها جوفية لذلك فقد اكتسبت هذه الآبار أهمية كبيرة وكانت عامل جذب رئيسي للسكان ولتأسيس مدينة تشيشن ايتزا. وأشهر هذين البئرين هي المسماة بالبئر المقدسة أو بئر التضحية وهي أشبه بالواحة الصغيرة بقطر ٦٠ مترا يحيط بها ويعلوها جرف صخري حاد، وطبقا للمصادر التاريخية للمايا وللغزاة الأسبان فأن هذه البئر كانت مكرسة لعبادة اله المطر وكان يحج إليها الزوار من جميع أنحاء البلاد ليقدموا الأضحية والقرابين التي تتراوح ما بين الحلي الذهبية والفضية والأواني والأدوات المنزلية وكذلك الأضحية الحيوانية والبشرية، فبعض المصادر الاسبانية تذكر بأنه في مواسم القحط والجفاف كان الكهنة يختارون الفتيات العذراوات الجميلات ويضحون بهن عند حافة البئر ثم يلقون بأجسادهن إلى مياه البئر، وقد أكدت التنقيبات

الحديثة صحة ما كتبه المؤرخون إذ عثر الغواصون في قاع البئر على الكثير من الأشياء من بينها هياكل عظمية بشرية، لكن الهياكل لم تقتصر على الفتيات والنساء وإنما ضمت أيضا العديد من الأطفال والرجال.

يعتقد علماء الآثار بان المدينة تعرضت في القرن العاشر الميلادي للغزو والاحتلال من قبل احد ملوك التولتك لذلك فأن الأبنية الأثرية في المدينة يمكن تقسيمها إلى نوعين، الأول يخص الفترة السابقة للغزو وتحمل طابع المايا المعماري أما الثانية فيمكن تمييزها من خلال التمازج الواضح لفن العمارة لكل من حضارتي المايا والتولتك، واغلب أبنية المدينة القائمة اليوم تنتمي إلى الصنف الثاني ومن ضمنها هرمها المدرج. وإضافة إلى فن العمارة فأن التولتك جلبوا معهم إلى المدينة آلهتهم وعاداتهم وطقوسهم التي تميزت بالتضحية بعدد كبير من البشر خلال كل مناسبة دينية.

في القرن الثالث عشر الميلادي تراجعت الحياة في المدينة وبدا جليا أنها هجرت من قبل اغلب سكانها وقد يكون السبب في ذلك هو ازدهار مدينة مايابان القريبة والتي ازدهرت آنذاك وأضحت عاصمة المايا السياسية والاقتصادية، لكن تشيشن ايتزا احتفظت بمكانتها الدينية لقرون لاحقة فكان الكثير من حجاج المايا يقصدونها وغالبا ما كانوا يجلبون معهم أضحيتهم البشرية ليلقوا بها إلى قاع البئر المقدسة.

هناك الكثير من الأبنية والأماكن السياحية في تشيشن ايتزا قد يكون أكثرها شهرة هو هرم المدينة المدرج المكرس للآله كيوكيولكان وهو اله

قديم صوره المايا على شكل أفعى عظيمة مجنحة أي أشبه ما يكون بالتنين الصيني، وقد اطلق الأسبان اسم" القلعة" على الهرم وهو يتكون من تسع طبقات هي عدد طبقات العالم السفلي في معتقدات المايا. قاعدة الهرم مربعة ويبلغ ارتفاعه الكلي ٣٠ مترا من ضمنها ٦ أمتار هي ارتفاع المعبد الذي يعلو قمته، ومن عجائب هذا الهرم هو سلالمه إذ إن في كل جهة من جهاته الأربعة هناك سلم يرقى إلى المعبد في القمة ويتكون كل سلم من ٩١ درجة باستثناء السلم الشمالي الذي يتكون من ٩٢ درجة وبجمع عدد الدرجات في السلالم الأربعة نحصل على عدد أيام السنة حسب تقويم المايا والذي يعتبر من أدق التقاويم البشرية من حيث نسبة الخطأ. وهناك عجيبة أخرى في هذا الهرم والتي تدل على إبداع ودقة المعمار القديم وتعتبر من أكثر عوامل الجذب السياحي للمنطقة، وهذه العجيبة تتجلى لمرتين في السنة في يومي الاعتدال الخريفي والربيعي ففي هذين اليومين تلقي الشمس بظلالها على الجزء الشمالي من المعبد باستثناء الجزء الأعلى من السلم الذي يبدو من خلال الظلال التي تلقيها عليه طبقات الهرم كأنه متصل بجسد واحد نوراني مع رأس الثعبان الذي يرمز إلى الإله كيوكيولكان عند قاعدة السلم ويخيل حينها لمن يراه بأن أفعى عملاقة تهبط إلى الأرض من أعلى الهرم.

إضافة إلى الهرم المدرج تحتوي تشيشن ايتزا على سبعة ملاعب ضخمة للعب الكرة ويعتبر احدها هو الأكبر على الإطلاق الذي تم بناءه في تاريخ حضارات الميسوامريكا اذ يبلغ طوله ١٦٦ مترا وعرضه ٦٨ مترا ويحده من الجانبان حائطان صخريان بارتفاع ١٢ مترا علق على كل منهما

حلقة صخرية يعتقد العلماء بأنها كانت تمثل الأهداف التي ينبغي على كل فريق إدخال الكرة المطاطية إليها (للمزيد حول لعبة الكرة الميسوامريكية القديمة راجع مقالة : لعبة الموت .. من يخسر يفقد حياته!).

هناك أيضا بناء أخر يجذب اهتمام الزوار يسمى المرصد الفلكي حيث تعلوه قبة صخرية، فالمايا كانوا مشهورين بدقة ملاحظاتهم الفلكية وحساباتهم المذهلة لحركة الكواكب خاصة بالنسبة إلى أناس لم يكونوا يستعملون سوى عيونهم المجردة لمتابعة ومراقبة الأجرام السماوية.

هناك أيضا حائط الزومبانتلي الذي تغطيه صور الجماجم والذي يوضح كيف كان المايا وغيرهم من أمم الميسوامريكا يعلقون رؤوس الأضحية البشرية ورؤوس أعدائهم في الحروب على هيكل ضخم ينتصب عادة بالقرب من هرم المدينة ومعبدها ويبدو للعيان كأنه شجرة عملاقة من الرؤوس البشرية.

تحوي المدينة أيضا مجموعة من الكهوف التاريخية المقدسة لدى المايا، احدها يبعد مسافة ٤ كيلومترات عن أطلال المدينة ويحتوي على العديد من الآثار والنقوش وقد تم تحويله إلى متحف في الآونة الأخيرة.

هناك آثار كثيرة أخرى في تشيشن ايتزا مثل معبد الألف عمود ومعبد كوكب الزهرة ومعبد المحاربين إضافة إلى آبار المدينة التاريخية التي لازالت تنضح بالماء حتى اليوم ، ويمكن للسياح دخول بعض آثار المدينة فيما يحظر ذلك بالنسبة إلى آثار أخرى مثل الهرم المدرج الذي تم منع

الزوار من تسلقه بسبب سقوط امرأة عجوز من على سلمه عام ٢٠٠٦ مما تسبب بموتها.